آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية محكمة تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والتحقيق

بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ص.ب ٥٦٥٦ دبي

هاتف ٢٦٦٥٥٥٦ (٩٧١)

فاكس ٢٦٦٥٥٥١ (٩٧١)

دولة الإمارات العربية المتحدة

السنة الثانية عشرة : العدد الثامن والأربعون ـ ذوالقعدة ١٤٢٥ هـ ـ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٥ م

رقم التسجيل الدولي للمجلة

ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

المجلة مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ٣٤٩٣٧٨

هيئة التحرير

مدير التحرير

د. عز الدين بن زغيبة

سكرتير التحرير

د. يونس قدوري الكبيسي

هيئة التحرير

أ.د. حاتم صالح الضامن

د. محمد أحمد القرشي

أ. عبد القادر أحمد عبد القادر

الاشتراك السنوي	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهم	١٥٠ درهماً
الأفراد	٧٠ درهماً	١٠٠ درهماً
الطلاب	٤٠ درهماً	٧٥ درهماً

المقالات المنشورة على صفحات المجلة تعبر عن آراء كاتبيها ولاتمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو المركز الذي تصدر عنه

يخضع ترتيب المقالات لأمور فنية

المحتويات

الافتتاحية

■ السيرة النبوية رؤية في إعادة التدوين

مدير التحرير ٤

المقالات

■ سورة الواقعة

ضوء على القراءات القرآنيّة والتوجيهات النحويّة

د. عامر عيدان علي ٦

■ الإتجاهات الفكرية الأساسية

المفسرة لظاهرة الحضارة

د. موسى لحرش ٢٣

■ كسر الاحتكار مهمة الدولة في الأمن الغذائي

د. سلام عبد الكريم سميسم ٣٥

■ نظرات في الطبعة الجديدة لكتاب الأغاني

د. محمد خير شيخ موسى ٤٦

■ الثنائية اللغوية العربية الفرنسية

في مواجهة عصر المعلوماتية

د. رواء زكي يونس الطويل ٦٦

■ مركزية النقد والتعدد الأيديولوجي

نقد التفكيك

د. محمد سالم سعد الله الشيخ علي ٧٨

المقالات العلمية

■ تطور علم الطيور في الحضارة الإسلامية

أ. د. محمد حسن الحمود ٩٧

تحقيق المخطوطات

■ إفادة الخبر بنصّه في زيادة العمر ونقصه

عبد القادر أحمد عبد القادر ١٠٩

الثنائية اللغوية العربية الفرنسية

في مواجهة عصر المعلوماتية

د. رواء زكي يونس الطويل
جامعة الموصل - العراق

إنّ الثنائية اللغويّة تؤدي إلى الثنائية الثقافية وكذلك التعدّدية اللغويّة، فثنائي اللغة يتعلم كيفية بناء أفكاره، وجعل نظام القيم لديه وتجاربه ومواقفه تأخذ شكلاً يتوافق مع النظام الثقافي للجماعة، التي يود التعامل معها. والإنسان الذي يجعل وسطه ثنائي اللغة، تصبح كل لغة من لغاته أداة لصياغة أفكاره، وناقلة لها في الوقت نفسه، كما تكون وسيلة لتمثل العالم. وإذا أصبح الإنسان ثنائي اللغة في مرحلة مبكرة من حياته، فإنّ نموه العقلي يتم في الوقت نفسه، وبالإيقاع ذاته مع نموه اللغوي في كلتا اللغتين اللتين يمتلكهما، واللتين هما وسيلتان للتفكير ونسقان ثقافيان.

إنّ تحصيل لغة ثنائية مع اللغة الأم يقتضي بالضرورة التواصل الحقيقي مع أصحاب اللغة الأخرى، كما أنّ التعبير باللغة الثانية لا يعني التحدّث تمامًا بطريقتهم، كما أنّ الحديث بطريقتهم يقتضي قدرًا معينًا من الامتلاك للغتهم، فاللغة الثانية للشخص داخل وسط اجتماعي طبيعي لا تكون مشحونة بالمعاني فقط، بل بدلالات عاطفية وثقافيّة.

ولا يخفى علينا اشتداد حمى الحديث عن الغزو الثقافي خلال السنوات القليلة الماضية، وقد كان لهذا الحديث ما يسوغه، فهو بالتأكيد لم يأتِ من فراغ، كما أنّ نفي الغزو، أو القول إنّ الأمر لا يتعدى تفاعلاً وتواصلاً ثقافيًّا سمة ملازمة للحياة الإنسانية على مر العصور فيه الكثير من التسطيح؛ لأنّ هذا النفي يتجاهل خصوصية الحالة الراهنة وزخمها غير المسبوق، التي وضعها هربرت ماركوز بحالة عالميّة تُضاف على الإنسان، وتحاصره عبر تقييد حدود الاختيار والحوار من خلال أدوات الإعلام الحديثة، التي تمارس دورًا هائلاً في التأثير في اختيار الناس وأذواقهم.

إنّ العولمة على الرغم من جذورها الاقتصادية، وعواقبها السياسية، قد سلطت الضوء أيضًا على قوة الثقافة في هذه البيئة الكونيّة، فما يجري اليوم من اهتمام يتصف بالجديّة يختلط بالقلق على خلفية أنّ العولمة تختزل فرض الاتجاه الواحد، وتعميم النسق الواحد للثقافة، من خلال السيطرة على أدوات العولمة وآلياتها، التي تنقل إلى العالم الصور، والمعاني، والرموز، والقيم، والأنماط، بوساطة الأقمار الصناعية، والبث التلفازي، وبرامج الحاسوب، وشبكة المعلومات الدوليّة، ويقوم موجهو عملية العولمة المتسارعة اليوم بتحسين وسائل النقل الدولي وأنظمتها، ويبتكرون تكنولوجيا وخدمات ثورية جديدة في مجال المعلومات، ويهيمنون على السوق الدولي للأفكار والخدمات، وهو ما يؤثر في أسلوب الحياة، والمعتقدات، واللغة، وكل مكونات الثقافة الأخرى.

أهمية البحث:

لم يعد أمام الإنسان المعاصر الآن سوى تنمية قدراته على التحليل، والاستيعاب، والاستنباط، والابتكار، والإبداع، والتفاعل، والتعلم الذاتي، والتدريب المستمر، وتوظيف التقنيات العصرية على امتداد الحياة، لا في أثناء سنوات الدراسة في مدرسة، ثم في جامعة فحسب؛ فالطفل يكبر وينضج بأسرع مما كان يأمل أبواه، لكن ثقافته الأولية تتشكل من كم أكبر لشتات قيم وأفكار متضاربة متلاطمة، تسربت إلى وعيه وعقله في اتجاهات متباينة؛ لتتراكم مع ما حاولت عائلته ومدرسته أن تغرسه.

إنّ صراع الأجيال يحتدم من ناحية، ويحتدم صراع المكتسبات والمؤثرات المعرفية والسلوكية المتناقضة من ناحية ثانية، مما ينذر باحتمالات أكبر؛ لتفسخ البنى الثقافية المجتمعيّة وتفككها، ولتفتت الشخصية الحضارية وتضعضع مقوماتها، وأخيرًا تنهار الثقافة المركبة من المعارف والعقائد والأخلاق والقوانين والعادات والفنون التي ينتجها المجتمع جيلاً بعد جيل، ويكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في هذا المجتمع، تنها الثقافة أمام اجتياح البدائل الواحدة وأنماط الحياة، التي أفرزتها تجارب مجتمعيّة وحضاريّة مغايرة.

إنّ ثنائية اللغة العربية - الفرنسية إضافة إلى الإنكليزية هي الرد والمواجهة للإشكالية هذه، مع الإشكاليات التي تفرضها طبيعة العصر، الذي صارت السرعة فيه سمة طاغية له، حيث يمضي كل شيء بتسارع هائل، كما أنّ المتغيرات الحديثة الراهنة شجعت على تعميم اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية. وفي ظل النظام العالمي والسياسة الدوليّة يوجد اتجاهات أساسية أهمها:

١- **الاتجاه الأول:** تعبر عنه سياسة كل من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا واليونان، وإلى حد ما ألمانيا، يدعو إلى قيام دور أوروبي قوي في إعادة تنظيم العلاقات مع دول البحر المتوسط، وبخاصّة العربية منها من خلال دعم الموقف العربي، وهذه تربطها بالوطن العربي علاقات وثيقة منذ زمن بعيد.

٢- **الاتجاه الثاني:** الانجلو- سكسوني، الذي تتزعمه بريطانيا، ويدعو إلى توثيق العلاقات مع أمريكا ودول شمال الأطلنطي؛ لأنّها ستحرز تقدمًا اقتصاديًا وتكنولوجيًا لمنافسة قوة اليابان المتصاعدة ومواجهتها هي وتحالفها مع مجموعة دول شرق آسيا، التي يطلق عليها

النمور الآسيوية، فسياسة بريطانيا الأوربية تعطي الأوليّة للتعاون بين دول حلف الاطلنطي Atlanticized Europe.

٣- **الاتجاه الثالث:** يضم ألمانيا وبعض الدول الأخرى، مثل هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ، وهذه تطالب بتعزيز أواصر الوحدة الأوربية أولا؛ لأنّه سيعطي أوربا الموحدة قوة أكبر وأقدر على منافسة مع القوى الاقتصادية الكبرى في العالم.

مشكلة البحث:

إنّ الصلة بين الثقافة والتنمية الشاملة موضوع شاع الحديث عنه في المحافل الدوليّة بشكل خاص، واتخذ منحًى جديدًا بعد أن ذاعت تلك الفكرة التي أطلقها مؤتمر اليونسكو في المكسيك عام ١٩٨٢ حول السياسة الثقافيّة، ونعني بها أنّ الثقافة بالمعنى الانثروبولوجي الواسع لهذه الكلمة ليست وسيلة التنمية الأساسية فقط، بل هي هدف التنمية ومحط رحالها.

والتنمية الثقافية جهد واعٍ خطط له من أجل إحداث تغيير ثقافي في الفكر وأساليب السلوك، وقدرة على التمييز بين العناصر الثقافيّة التقليديّة والعناصر الجديدة المستحدثة، واستبعاد تلك العناصر التي يثبت عجزها عن التناغم مع الجديد المستحدث، الذي لا يمكن التنكر له أو تجاهله، ويتم إدراك عالم المعلومات من خلال منظور لغتنا العربية.

لقد تلاحمت اللغة مع تحديات عصر المعلومات، حيث يتم إدراك أنّ قدرة مجتمعاتنا العربية للحاق بركب هذه الثورة المعرفية والتكنولوجية تتوقف على نجاحنا في تأهيل هذه اللغة لهذه المواجهة الحضارية. ويبرز الوضع الجديد للغة في عصر المعلومات وانفجار المعرفة، واحتلال اللغة موقع الصدارة في هذا العصر، مدى حدّة أزمتنا اللغوية.

إنّ أزمتنا اللغوية ستتفاقم تحت ضغط المطالب الملحّة لعصر المعلومات واتساع الفجوة اللغوية التي تفصل بيننا وبين العالم المتقدّم كناتج فرعي لاتساع الفجوة التكنولوجيّة المعلوماتيّة. إنّ العلاقة بين الثورة العلميّة والتقانية وبين الهويات الثقافيّة للشعوب، بما تتمثل من نقل الثقافة المتقدّمة من مخاطر على الهويات الثقافيّة، ولا سيما بعد التغيرات العالميّة الكبرى، التي رافقت انهيار الاتحاد السوفييتي وسيطرة العولمة بجوانبها المتعددة، من اقتصاديّة وثقافيّة واجتماعيّة وسياسية وغيرها.

إنّ الأمة العربية إذا لم تتوحد فسوف تفقد بالتدريج ما تجمع لها من بعض عناصر تكوين الأمم، وتفقد استقلالها، وتزداد ولوجًا في حالة التبعيّة، فالعصر الحالي يتجه إلى عدم السماح بالوجود المستقل إلا للكيانات الكبيرة، وفي ظل التجزئة ستلتحق البلدان العربية بثقافات هجينة وغريبة عنها، وتسودها عوارض الثقافة القائمة على الاستهلاك والتدهور القيمي، التي تروج لها أمريكا بدعوى العولمة.

الفجوة اللغويّة والفجوة التكنولوجيّة - المعلوماتيّة:

إنّ أخطر جوانب العولمة العولمة الثقافية، كونها المعنية بفرض مفهوم الأقوى، وتقليد أسلوب حياة المنتصر، فتفتح الباب على مصراعيه؛ ولذا يكون الهجوم من خلال العولمة الثقافيّة، ويرى بعض الباحثين أنّ هناك أربع عمليات للعولمة هي:

١- المنافسة بين القوى العظمى.

٢- الابتكار الثقافي (التكنولوجي).

٣- انتشار عولمة الإنتاج.

٤- التبادل والتحديث[١].

إنّ المشكلات البنيويّة للثقافة العربية أنّ الثقافة بوصفها نظامًا اجتماعيًّا معرفًا لإنتاج المعاني، هدفه تحديد موقع الجماعة من حضارة، ومجتمع، ودولة، وقوميّة في الزمان والمكان، وإعطاء هويّة محددة لهذه الجماعة، ويمكن تقسيم الثقافة على أنماط، هي[٢]:

١- النظام المعرفي الشفاهي - المثيولوجي.

٢- النظام المعرفي الأبجدي (الكلمة - المكتوبة - المطبوعة).

٣- النظام المعرفي ما بعد الأبجدي (نظام الصورة - الرقم - الحاسوب).

إنّ البلاد العربية خلال قرن من الزمان اقتحمت من النظام الشفاهي والطور الابتدائي من نظام الكلمة المكتوبة (المدوّنة) إلى الطور الأعلى، أو الكلمة المطبوعة، التلغراف، ثم إلى الطور ما بعد الأبجدي، وقد أحدثت هذه النقلات ثورات واحتدامات داخليّة.

ويتم إدراك عالم المعلومات من خلال منظور اللغة الأم، فاللغة تلاحمت مع تكنولوجيا المعلومات تلاحمًا شديدًا، ومن ثمّ تتوقف قدرة مجتمعاتنا العربية للحاق بركب هذه الثورة المعرفية التكنولوجية بصورة أساسية على النجاح في تأهيل هذه اللغة لهذه المواجهة الحضاريّة الحاسمة[٣].

إنّ الأزمة ستتفاقم تحت ضغط المطالب الملحّة لعصر المعلومات، واتساع الفجوة اللغويّة التي تفصل بيننا وبين العالم المتقدّم كنتاج فرعي لاتساع الفجوة التكنولوجيّة والمعلوماتيّة[٤].

فإنتاج الثقافة، كنظام للمعاني في الرقعة العربية، يعاني من خمسة أمور:

١- تصادم الأشكال الثلاثة المتعايشة المتراكبة.

٢- ازدياد أثر الثقافة وأهميتها من جهة، وتدهور مكانة المثقف الفرد من جهة أخرى[٥].

٣- التعلق الشديد للمؤسسات بالدولة، وتبعيتها لها، الأمر الذي يؤدي إلى اختلاط الإيديولوجي بالمثيولوجي بالوضعي في المقاربات الفكريّة.

٤- صعود الثقافات الشعبيّة الدنيا، بفضل وسائل الاتصال التكنولوجيّة، على حساب الثقافات العليا.

٥- احترام التوترات المتعلقة بفكرة الهوية، (هوية الجماعة، موقعها في العالم، علاقتها بالآخر) مع اشتداد الانغلاق إيديولوجيًّا (الخصوصيّة الأصالة)[٦].

وإذا استمر التقاعس في التصدي للأزمة فإنّه ينذر بانزواء اللغة العربية إلى مصافّ الدرجة الثانية، حيث ستحتاج للعديد من عناصر البنية التحتيّة، التي تؤهلها لعضوية نادي تعدّد اللغات العالمي، وتمنحها القدرة على الاحتكاك اللغوي، الذي تشير جميع الدلائل إلى تزايد حدّته واتساع نطاقه[٧].

إنّ ولادة مجال جيو - ثقافي جديد، ومن ورائه نظام عالمي للثقافة والتبادل الثقافي، بما تتيحه من قدرة على النفوذ إلى القيم والمبادئ والعلوم والمعارف الجديدة، تخلق فرصًا متعدّدة أمام الثقافات، التي تطمح إلى الرفع من كفاءتها، والدخول في المنافسة الإبداعيّة العالميّة.

إنّ آثار العولمة الثقافية لا تقتصر على توسيع إمكانات التفاعل الثقافي بين الثقافات التاريخيّة

الكبرى، ولكنها تحمل أيضًا مخاطر كبيرة، وتحديات ثلاثة رئيسة، هي[٨]:

١- الاتجاه المتزايد مع ثورة الاتصالات إلى إخضاع الثقافة لمنطق التجارة.

٢- تعميق ديناميكيّة السيطرة الثقافيّة أو الإمبرياليّة الثقافيّة، وتزايد التصحر الثقافي.

٣- تعميم أزمة الهوية بما يتفاعل معه وزن الثقافات الوطنيّة ونفوذها.

مما تقدّم نرى أنّ مشكلة تبرز، هي أساس بناء الذاتيّة المجتمعيّة، وسيطرة الشركات الصناعيّة والتجاريّة الكبرى، بصفتها صانعة للأحداث، على حساب الذوات الاجتماعيّة، الوطنيّة أو السياسيّة أو الثقافيّة[٩].

الأحادية اللغوية وعوائق التقدم الثقافي:

إنّ الظروف الحاليَّة للمجتمع والثقافة العربية تواجه عوائق عديدة خاصّة بعد اصطدام الوطن العربي بأفق مسدود بعد النكسات السياسيّة التي أصابت حركة التحرر العربي، والهدر الاقتصادي الذي نتج عنه ضياع فرصة التنمية الاقتصاديّة وتكريس التبعيّة بأشكالها المختلفة[١٠].

لقد اضمحلت مقومات النهضة في مجال الثقافة والفكر مع سيادة رفض العقلانيّة والحداثة والمعاصرة. فالتقدّم الثقافي لا يحدث إلا ضمن علاقة جدليّة داخل المجتمع، بمعنى التأثير والتأثر مع أشكال التقدّم الأخرى السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. لذا وجب العمل من أجل مشروع نهضة متكامل، نقفز به من القرون الوسطى إلى القرن الحادي والعشرين، وهي مسؤوليّة مزدوجة يتحملها المثقفون[١١].

إنّ ما يسود الثقافة العربية منذ مدّة في اتجاه يستخدم شعار التنوير بوصفه هدفًا أساسيًّا من أهداف النهضة الفكريّة والاجتماعيّة الشاملة، ووسيلة أساسيّة من وسائل هذه النهضة[١٢].

ويوجد ثلاث تحفظات على الاتجاه الداعي للتنوير هي:

- إنّ هدف التحرر من أغلال التقاليد والعرف والأفكار الموروثة والتحيزات السالفة، له حدود، لا يمكن تجاوزها.
- من الخطأ الاعتقاد بأن حركة التنوير في أوربا في القرن الثامن عشر كانت تدعو إلى مثل هذا التحرر الكامل من التقاليد والأفكار الموروثة والتحيزات السالفة، بل إنّها تحررت من بعض الأفكار السالفة لتتقيد بغيرها.
- من الخطأ الاعتقاد بأن التنوير يقتصر على المعاني التي رفع لواءها المفكرون الأوربيون في ذلك العصر، فحركة التنوير حركة إنسانيّة عمرها عمر الفكر الإنساني نفسه.

إنّ مستقبل الثقافة العربية مرهون بالتحرر من قيود ترتبط بالبيئة الثقافيّة العربيّة، وهي تختلف عن القيود التي كان مفكرو التنوير في أوربا يكافحون من أجل التحرر منها[١٣]. والمطلوب هو العمل من أجل مشروع نهضة متكامل، نقفز به من القرون الوسطى إلى القرن الحادي والعشرين، وهي مسؤوليّة مزدوجة، يتحملها المثقفون[١٤]؛ لأنّ ثقافتنا الذاتيّة المتصورة هلامية الشكل، زئبقيّة المضمون في مقابل الثقافة التقنية لهذا العصر[١٥].

الثنائية اللغوية والاستلاب الثقافي (ثنائية اللغة العربية - الفرنسية):

إنّ مشكلة الثنائية اللغوية في الوطن العربي،

على الرغم من كون المواجهة بين الوطن العربي والغرب، تعود إلى زمان حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨م، وعلى الرغم من كون غالبية بلدان المنطقة العربية قد طالها الاستعمار الأوربي، إلا أنّ هذه الثنائية لم تترك آثارها إلا في لبنان، ومن ثم منذ عهد قريب جدًّا بلدان المغرب العربي.

ويرى بعضهم أنّه ثبت عبر التجربة الإنسانيّة أنّ المجتمعات التي تقدم على التعدّديّة اللغويّة وتحترمها هي التي حققت أكبر قدر من التقدّم في جوانب حياتها المتعددة بما في ذلك الجوانب الثقافيّة، فالثنائيّة اللغويّة تقود إلى الثنائيّة الثقافيّة[١٦]. ولما كان الأمر كذلك يصبح المستقبل العربي كلّه رهنًا بمستقبل التعدّديّة عمومًا، والتعدّديّة الثقافيّة خصوصًا[١٧]. كما أنّه على الرغم من أنّ الأحادية المفروضة علينا بدأت تنحسر بدرجات في البلاد العربية، إلا أنّ التعدّديّة الحقيقيّة لا تزال غير واضحة.

إنّ المشكلات التي تواجه التعدّديّة تتمثل في الآتي:

١- مشكلة القيود المفروضة على التعدديّة السياسيّة، التي تدفع إلى تسميتها تعدديّة مقيدة، وهذه القيود تترك هامشًا محدودًا للحرية، لا تتوافر فيه مساحة كافية للتفاعل والتحاور على نحو يؤدي تدريجيًّا عبر الممارسة إلى ترسيخ التعدديّة الثقافيّة.

٢- مشكلة النظرة إلى الآخر، وهي المشكلة التي تقف وراء تحول قضايا كبرى، يتداخل فيها السياسي مع الثقافي إلى قنابل قابلة للانفجار في أي وقت، مثل قضية التطبيع، وهي عكس الأجواء التي تسود وتزدهر فيها التعدديّة الثقافيّة،أجواء الاعتراف والاحترام المتبادلين والانفتاح والتعايش.

٣- انسداد قنوات الحوار الثقافي، وهي محصلة للمشكلتين السابقتين؛ لأنّ وجود قيود تحول دون حوار سياسي حر تنعكس بالضرورة على الحياة الثقافيّة، كما أنّ النظرة السلبيّة والعدائيّة للآخر تحول دون استثمار هامش الحرية المُتاح، للبدء في حوار يتطور مع الوقت.

فلو كان الاتصال منحصرًا داخل حدود التجمعات اللغويّة لعرفت الإنسانية عددًا من الثقافات المتعددة، بعضها معادل لعدد اللغات، كما صرح واينربخ[١٨]، وبخاصة بعد تآكل العلاقة التي تصل الثقافة باللغة، حيث يتعرض أغلب الباحثين إلى مفهوم الثنائيّة الثقافيّة في أثناء طرحهم لمفهوم الازدواجيّة اللغويّة، وعلة هذا أن اللغة تشكل في الوقت نفسه إحدى مكونات الثقافة، وكذلك وسيلتها المفضلة للتعبير.

إنّ إشكالية التعليم في الوطن العربي تعود إلى مسألة تقييمها وتقويمها[١٩]، فعلى الرغم من ذكاء الإنسان العربي الفطري، والمجرب تاريخيًّا، إلا أنّ تخلف الإنجاز العلمي العربي بسبب ما شهدته من عصور الظلام والنكوص من كوابح، مثل الاستبداد، وهيمنة الاستعمار، وغياب التنظيمات التمثيليّة الاجتماعيّة والسياسيّة، إضافة إلى الانتكاسات على المستويين الفردي والجماعي، لذا وجب تكريس المدرسة العربية على تعليم التفكير من خلال الاهتمام بهذه الأنشطة بديلاً عن الاستذكار إلى تكريس مهارات التحليل والمقارنات، وعلينا الاستفادة من الأدبيّات العالميّة الخاصّة بالتربية والتربية المنصبة على تغذية ملكة التفكير على نحو خاص، آخذين بعين الاهتمام نظريات التفكير وتعريفاته، إضافة إلى

دراسة فيزيزلوجيا الاندماج بجانبيه الأيمن والأيسر[٢٠]. لذا ترتكز قاعدة التقدّم في الوقت الحاضر إلى عناصر أساسية ثلاثة هي:

١- العقلانيّة.

٢- الديموقراطيّة.

٣- المعرفيّة.

مما تقدّم يتوجب على العرب الآتي:

١- الاستفادة من الحضارات الأخرى المتقدّمة.

٢- الانتقاء منه على النحو الذي لا يجر ويلات التقدّم الجانبيّة.

أي علينا الاستفادة من الحضارة الغربيّة وتقدّمها، وفي الوقت نفسه علينا تحاشي ما سقطت به الحضارات الغربية من سلبيّات كالتلوث والمخدرات والجريمة والفقر[٢١]، وعند شراء آخر المبتكرات الجديدة واقتنائها على الأقطار العربية مراعاة التكامل المؤسس على القدرة على استعمال هذه التقنيات الجديدة وصيانتها وإدارتها.

نماذج تعدّدية اللغات الشائعة في بعض الأقطار العربية:

تتناول بعض المصادر رفض آراء المتزمتين التقليديين، الذين يرفضون كل اقتباس عن اللغات الأجنبية، فيرمون إلى إبقاء اللغة العربية خارج النشاطات الثقافيّة والعلميّة والتقنية للقرن العشرين[٢٢]، بهدف التصفية الصرفة للغة العربية. فاللغة القوميّة خير دائمًا للأمة؛ إذ بدونها لا يستطيع الشعب أن يصل إلى سمو شأنه بحريته الكاملة[٢٣].

إنّ انتقال الحضارة من أمة إلى أمة أخرى لا يمكن أن يتم إلا إذا حافظت الأمة المقتبسة على لغتها الخاصّة. إنّ عملية انتقال الحضارة ينبغي أن تتم عن طريق الترجمة؛ لذا فإنّ لبنان المترجم مثلاً ينبغي له أن يسبق لبنان المبتكر[٢٤] . إنّ مشكلة التبعيّة الثقافيّة ستطرح نفسها عاجلاً أم آجلاً على الساحة الدوليّة بالقدر نفسه من الحدّة في طرح مشكلات التبعيّة السياسيّة والاقتصاديّة، كما أن الدول الفقيرة تتحمل أضرارًا خطيرة يتعلمها بالكيفيّة التي تستطيعها، من غير أي تبادل للغات شريكاتها في الدول المصنعة، فتضيع مجهوداتها، ويؤدي بها ذلك إلى تمزق حقيقي في الشخصيّة الفرديّة والجماعيّة[٢٥].

أمّا عن (الدغلوسية) فهي ليست بين العربية الفصحى والعربية الدارجة فقط، التي يصفها صالح غرمادي في صميم النقاش؛ كي يتسنى له الدفاع عن الدارجة، فكل لغات الثقافة، التي لها تراث تاريخي وثقافي مسجل عن طريق الكتابة، لها لهجاتها وأشكالها الدارجة، التي تختلف من منطقة إلى أخرى، والتي تنمو وتتطور مع الزمن. فاللهجات الدارجة، ولا سيما في المناطق الحضرية في المغرب العربي، قد تعرضت بفعل المثاقفة لتطور جنوني، في الوقت الذي أصاب اللغة الأم بفعل عامل المثاقفة، نوع من الانغلاق. وفيما يأتي بعض الأمثلة عن الوطن العربي:

١- لبنان:

يمكن أن نلخص الحالة في لبنان من خلال رأي كمال الحاج، الذي يعارض الازدواجية اللغويّة المُتاحة، لكنه في الوقت نفسه من أنصار البيكولتيّة؛ أي ثنائية اللغة، بل تعدّد اللغات، على شرط ألا تنافس اللغات الأجنبيّة اللغة الأم، وألا تنازعها وظيفتها الأساسيّة، التي هي التعبير عن شموليّة الكائن، كما يقدّم دفاعًا فصيحًا عن اللغة

العربية عادًا إياها من جملة ضوابطنا التاريخيّة، التي ينبغي لنا أن نقدّسها حتى تزاول القيم العالية[٢٦]. إنّ إعادة التأسيس لا تقوم على مبدأ نسف القديم بسبب أنّه لا يتفق مع العقل الأوربي الحديث، فالعقل الأوربي الحديث، الذي تأسس مجددًا على يد ديكارت، قد تجاوز أرسطو نفسه، تجاوزه بمنهج عقلي ومفاهيمي، وقد يستغرب البعض حين يعلم أن ديكارت نفسه تأثر بمنهج الغزالي[٢٧].

من ناحية ثانية نرى أنّ أطروحة سليم عبود الموسومة بـ: (الازدواجيّة اللغويّة العربيّة – الفرنسيّة في لبنان) دفاع عن الازدواجيّة اللغويّة العربيّة – الفرنسيّة. ويرفض مفهوم البيكلوتيّة، ويراه ثنائيّة لغويّة شعوريّة وأحاديّة لغويّة تعبيريّة، أو القراءة بلغتين والتكلم واقعًا بواحدة فقط[٢٨].

إنّ الموازنة بين لبنان من جهة وبلجيكا وكندا من جهة أخرى، كون بعض الكنديين والبلجيكيين يعانون أحيانًا من عقدة النقص إزاء الفرنسيين، ولكن لم يتخلّ البلجيكيون، ولا الكنديون عن ازدواجيتهم اللغويّة، بحجة أنها تجعلهم يتخلون عن هويتهم.

إنّ ثنائيّة اللغة في لبنان ترى من ثنائيّة الثقافة، ولبنان مجتمع منقسم على صنفين جغرافيين بشريين متمايزين، الجبليين والحضريين، كما أنه منقسم على مجموعتين من الطوائف الدينيّة، التي تملك عاداتها وتقاليدها، فإن كانت الثنائيّة الثقافيّة قد تولدت عن الثنائيّة اللغويّة الحالية، فالتكيّف الذي يتطلبه الاستعمال المتناوب للغات ما هو إلا انعكاس للشخصية؛ فاللبناني لا يمكن أن يتخلى عن ثنائيتة اللغوية من غير أن يتخلى عن هويته[٢٩].

٢- المغرب:

وضع المغرب غداة استقلاله السياسي سنة ١٩٥٦ مجموعة من الأهداف في مجال التعليم، ووظف في ذلك إمكانات مهمّة، ولكن النتائج كانت ضعيفة موازنة بالجهود المبذولة، فهناك ثنائيّة لغويّة يعانيها المتعلم لا يملك قدرة على التحكم فيها، تقود بقدر أو بآخر إلى ازدواجيّة لغويّة متوحشة[٣٠]. ونستذكر هنا قول الجابري، في أن القواعد التي وضعها الشافعي، لا تقل أهمية بالنسبة لتكوين العقل العربي الإسلامي، عن القواعد التي وضعها ديكارت، بالنسبة لتكوين الفكر الفرنسي خاصة، والعقلانيّة الأوربيّة عامّة[٣١].

إن عملية المثاقفة تحدث تحولاً سلبيًا في حياة الذين يعانون منها في البلاد المتخلفة، وخطورة المشكلة تبرز في كون المتعلم لا يزال في طور هش من تكوينه، إذا لم تتسنَّ له بعد فرص تقوية ردود فعله الدفاعيّة لمواجهة الهجوم الخارجي. وهذا الهجوم غير متأتٍّ من الوسط التعليمي فقط، وإنما خلفية سوسيو ثقافيّة قويّة ومستوردة، تمتد من الأشعار إلى السينما، مرورًا بوسائل الإعلام والأدوات المتنوعة[٣٢].

وبتقييم كلفة المشكلات الناجمة عن ثنائيّة اللغات، سواء من الناحية الماليّة أو الثقافيّة أو التربويّة أو غيرها، يظهر أن الكلفة الثقافيّة هي التي تشكل جوهر المشكلة، فالمدرس الأجنبي من غير قصد منه ينفث في ذهن تلميذه، بشكل مباشر أو غير مباشر، نمطًا من التفكير والسلوك النفسي والمواقف الاجتماعيّة، التي لا تكون دائمًا نافعة لنمو بلدان العالم الثالث[٣٣]. في حين أنّ العقل العربي، بوصفه أداة للإنتاج النظري، صنعته

الثقافة العربيّة التي تعكس واقعهم، وتعبر عنه، وعن طموحاتهم المستقبلية، كما تحمل في الوقت ذاته عوائق تقدمهم وأسباب تخلفهم، تعكسها وتعبر عنها[٣٤].

٣- الجزائر:

لقد كانت سياسة فَرنَسة الجزائر، التي أفرط فيها المستعمرون، ترمي إلى تجريد الشعب الجزائري من ثقافته ولغته الوطنيتين، وإن كانت هذه السياسة قد نجحت جزئيًّا في حجب الثانية، فإنّها قد أخفقت تمامًا في التغلب على الأولى، وأن هذا الشعب لم يستطع الانتصار في النهاية إلا عن طريق انبعاث حقيقي لثقافته[٣٥].

وتطرح ايفون مينيو لوفير ظاهرة الازدواجيّة اللغويّة في الجزائر في إطار خلفيتها السوسيوثقافية، قائلة «ليست الازدواجيّة اللغويّة تعني لغتين فقط، وإنما هي أيضًا مجموعتان بشريتان، وثقافتان، تدخلان في علاقة متبادلة، وكل منهما تخضع لقوانين خاصة»[٣٦].

إنّ الرفض الذي واجهت به مرحلة حرب التحرير الإرث الثقافي واللغوي للمرحلة الاستعمارية، هو الذي وضع الأسس لاختيارات الجزائر في عهد الاستقلال، والمتعلقة بديمقراطيّة التعليم وتعريبه، ولكن عمليّة التعريب كانت عبارة عن إدماج للعربية في النظام التعليمي نفسه، لذلك سرعان ما أخذت علامات الاختلال تظهر.

٤- تونس:

يتشابه النموذج المغربي مع النموذج التونسي؛ لكون البلدين معًا كانا خاضعين لنظام حماية فرنسيّة، فلم يفقدا بعض الصفات الأساسية لسيادتهما، لذلك لا يمكن مقابلتهما بالنموذج الجزائري فيما يتعلق بمدة المثاقفة وتأثيرها. فحين خضعت تونس للحماية ظلّت محافظة على عناصر كاملة من سيادتها، مارستها في الأغلب باللغة العربية، إضافةً إلى نشاط صحفي مكثف باللغة العربية، صاحبه نتاجات أدبيّة وفنيّة ومسرحيّة وشعريّة، لا تزال تحظى إلى اليوم باهتمام الناس[٣٧].

ويقول كلود شارميون: إنّ استعمال اللغة الفرنسية بتونس ليست ظاهرة عارضة، إنّها فيما وراء الأداة اللسانيّة عامل لإدماج كثير من أنماط التفكير والإحساس، ولاكتشاف أنساق مرجعيّة أدبيّة وعلميّة وفلسفيّة وجماليّة أخرى[٣٨]. ويتعارض كلود شارميون تمامًا مع رأي غرمادي، الذي يرى أن الازدواجيتين اللغويّة والثقافيّة تشويهات، يلحقان اللسان والثقافة، وأنّ الفرنسية أخذت تحل محل العربية بعد عقد الحماية الفرنسية على تونس سنة ١٨٨١ في جميع المجالات، حيث إنّ المثقف لا ينتسب إلى ثقافة معينة إلا إذا كان يفكر داخلها، والتفكير داخل ثقافة معينة لا يعني التفكير في قضاياها، بل التفكير بوساطتها[٣٩].

التوصيات:

خرجت الدراسة بالعديد من التوصيات من أهمّها:

١- يجب أن يدرك المثقفون الحاجة إلى التنمية الثقافيّة في المجتمعات العربيّة خاصة، وأنّ هناك حالة عدم توازن بين عناصر الثقافة المتعددة، بمعنى أن توقعات المجتمع واحتياجاته الماديّة والمعنويّة قد تمّت وتعقدت إلى الحد الذي لم تعد البنى التقليديّة القائمة قادرة على مواجهتها أو إلغاء متطلباتها، لذا فإنّ الثقافة القائمة على ثنائيّة اللغة العربية – الفرنسية قد تتيح الفرصة لذلك.

٢- ضرورة إحداث تغيير ثقافي من أجل رسم صورة للمستقبل العربي في إطار واقع علمي، يتشكل على نحو جديد غير مسبوق، ويتحقق من خلاله عدّة أهداف أهمّها استخدام لغة أخرى إلى جانب اللغة العربية، كاللغة الفرنسية إضافة إلى الإنكليزية، بما تعني من عقل جديد، وفكر جديد، وأنماط سلوك جديدة؛ للتعامل بها مع كل جوانب الحياة، وعلى كل المستويات.

٣- معالجة الواقع العربي بكل مشكلاته، وخلق مفهوم جديد للتراث، ونقد لكل الأطر المرجعيّة السائدة، والإدراك بأنّ ثقافة التكنولوجيا تقوم على الاستخدام المكثف للمعلومات في استخدام مواردها الرئيسة، وهي المعرفة، وتأكيدها الحريّة والديمقراطية للفرد والجماعة.

٤- ضرورة وجود ثقافة وطنيّة عالميّة جديدة تصون الهوية الوطنية ولا تعزل نفسها أو تتقوقع على ذاتها، وذلك من خلال التعدديّة اللغويّة، أو ثنائيّة اللغة العربية - الفرنسية بالذات؛ لغرض عدم السماح للأفكار الأمريكيّة التي تروجها من خلال العولمة الثقافيّة.

٥- يجب تهيئة برامج الحاسوب وبخطوط متنوعة، إحداها لتعريب البرامج العلميّة والتدريبيّة، والأخرى لإنتاج برامج أصليّة باللغة العربية والاجتماعيات والدين ذات الصلة بالمناهج العربية في مراحل التعليم كافة، وبالتنسيق مع الأقطار العربية،إضافة إلى برامج أخرى باللغة الفرنسية للموضوعات ذاتها. ■

●●●

الحواشي

٢- Globalization and the Nation PP. 1-30.

٢- نظرة في المشكلات البنوية للثقافة العربية، مقاربة سيوسيولوجية للثقافة كنظام لإنتاج المعاني، مؤتمر مستقبل الثقافة العربية سنة ١٩٩٧م.

٣- ويبرز الوضع الجديد للغة في عصر المعلومات، وانفجار المعرفة، واحتلال اللغة لموقع الصدارة في هذا العصر، مدى حدة الأزمة اللغوية: تنظيرًا وتعليمًا، معجمًا ومصطلحات، استخدامًا وتوثيقًا.

٤- هناك فرصة نادرة لتعويض التخلف اللغوي إذا نجحنا في استغلال الإمكانات الهائلة، التي تتيحها المعلومات في المجال اللغوي، سواء على المستوى النظري أو العملي، بما يعني إخضاع التكنولوجيا المعلوماتية لخدمة اللغة العربية، وليس العكس.

٥- والسبب حلول المؤسسة المنتجة للخطاب الثقافي بدل الفرد.

٦- مستقبل الثقافة العربية، شؤون عربية: ع٩٢: ٢٤٢.

٧- اللغة العربية وتحديات عصر المعلومات، وقائع مؤتمر مستقبل الثقافة العربية

٨- الثقافة العربية وتحديات العولمة.

٩- مستقبل الثقافة العربية:٢٤٠.

١٠- عوائق التقدم الثقافي، وقائع مؤتمر الثقافة العربية، المجلس الأعلى للثقافة.

١١- مستقبل الثقافة العربية:٢٤١.

١٢- مفهوم التنوير: نظرية نقدية لتيار رئيسي من تيارات الثقافة العربية المعاصرة، مجلة شؤون عربية،ع٩٢.

١٣- مفهوم التنوير:٢٤١.

١٤- عوائق التقدم الثقافي:٢٤١.

١٥- نحو إطار معرفي جديد للثقافة العربية:٢٤٠.

١٦- الإزدواجية اللغوية والإزدواجية الثقافية في الوطن العربي، مجلة آفاق عربية ع تموز/س١٩٩٠م:٧٠.

١٧- مؤتمر مستقبل الثقافة العربية، مجلة شؤون عربية،ع٩٢/٢٤٢

١٨- الإزدواجية اللغوية:٧٠.

١٩- البقاء في عالم متغير، مجلة شؤون عربية :٢٢٤.

٢٠- عالم متغير:١٩٨.

٢١- البقاء في عالم متغير:٢٢٤.

٢٢- إن كتاب كمال الحاج (فلسفة اللغة) فيه تأمل في مشكلات اللغة عامّة في لبنان، معتمدًا بالأساس على التجربة الشخصيّة له، يبدو فيه متأثرًا بعمق بصدمة مزدوجة بازدواجية مبكرة وإجبارية في الوقت نفسه.

٢٣- حيث يروم بعض الكتاب المفكرين إلى اقتصار التعليم العالي على اللغات الأجنبية، مثلاً الفرنسية والإنكليزية، قصد المحافظة على مستوى التعليم ونوعيته، وإبقاء اللغة العربية في المراحل الابتدائية والثانوية فقط.

٢٤- لقد جهلنا فلسفة اللغة، فكان أن سرنا عكس الواقع البشري من غير أن ننتبه إلى الخطأ التربوي، الذي ارتكبته مناهجنا التعليميّة، ومن غير أن ننتبه إلى الشق الذي أقمناه بين اللبناني كفرد، ولبنان كوحدة شعب، وهو كون اللبناني كفرد لا يملك سوى لغة أم واحدة في حين أن مجتمعه يريد أن يفرض عليه عدّة لغات.

٢٥- والقول المأثور (كاتب ياسين) « إنني أكتب بالفرنسية؛ لأن فرنسا قد اجتاحت بلادي، وكوّنت لنفسها فيها مكانة قويّة، حتى أصبح مفروضًا علينا الكتابة بالفرنسية من أجل البقاء، لكن على الرغم من كتاباتي بالفرنسية إلا أنّ جذوري العربية لا تزال حيّة».

٢٦- وهذا التحدي جعل لبنان لم ينجب أبدًا أدبيًا عبقريًّا يكتب باللغة الفرنسية، فكل الذين كتبوا بتميز، كتبوا باللغة العربية، اللغة الأم الوحيدة في لبنان.

٢٧- المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت:٦.

٢٨- يعرض مقال جوليان غرين قائلاً :يمكننا أن نحرر قائمة بأسماء أشخاص مزدوجي اللغة، أصبحوا كتابًا كبارًا، من أشهرهم ريلكة وغوتة.

٢٩- إنّ الثنائية المشار إليها ترجع في نظر سليم عبو إلى معطى اجتماعي واحد، هو احتضان لبنان لتجمعين دينيين، وأنّ لكل منهما سماته الثقافيّة المميزة، ولكن القول إنّ أحدهما يجسم اللغة العربية والثقافة العربية، والآخر يجسد اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، قول ضد الواقع ليس بالنسبة للبنان فقط، ولكن بالنسبة لكل بلدان الشرق الأوسط التي تضم أقليّات دينية قويّة.

٣٠- إنّ ميزة الدراسة، التي قام بها أحمد المعتصم، تكمن في كونها تلامس بعنف مشكلات الثنائية اللغويّة، وتطرحها في إطار المثاقفة. وتنقل الدراسة هذا التيار الفكري بشكل واضح، وفيه يقدّم المؤلف إخفاق الثنائية اللغوية في العالم الثالث عامّة، وفي المغرب خاصة.

٣١- الإسلام وفلسفة الحكم.

٣٢- ويستنبط المعتصم الإيجابية في تعدد اللغّات هدفين اثنين : الأول آني ووطني، والثاني نفعي وعالمي. أما الأول فيمكن تحقيقه عن طريق دراسة متعمقة للغة العالية والموحدة. ويتعلق الأمر بالنسبة للمغرب باللغة العربية الفصيحة، بشرط تحديث أبنيتها، أمّا الجانب النفعي والعالمي فيمكن تحقيقه عن طريق تدريس لغة مساعدة واحدة، ذات انتشار واسع.

٣٣- الازدواجية اللغوية والازدواجية الثقافية في الوطن العربي، مجلة آفاق عربية: ع٧ :٧٣.

٣٤- حول تكوين العقل العربي، آفاق عربية:عدد تموز/ سنة ١٩٩٠م:٧٥.

٣٥- إنّ مشكلة الازدواجية اللغوية كانت تطرح نفسها دائمًا بوصفها مواجهة غير متكافئة بين لغتين متكافئتين.

٣٦- وتشير الكاتبة إلى أنّ إصلاحًا قد شرع في تطبيقه سنة ١٩٧٠ -١٩٧١ يسعى إلى تصحيح ثغرات النظام التعليمي، وذلك عن طريق تحديد أنواع الامتياز في التعليم الابتدائي، وتشير إلى أنّ هذه الثنائيّة المدرسيّة والاجتماعيّة تكتمل بثنائيّة ثقافيّة ولسانيّة، لا تتحكم فيها غير الأقليّة الحاكمة، وإنّ التمييز الاجتماعي، الذي لعبه الاستعمار الفرنسي، يبدو كأن التعليم المدرسي أخذها على عاتقه.

٣٧- ويرى صالح غرمادي هذا جيّدًا، إلا أنّ استهانته بالعربية الفصيحة المتولدة عن تشبثه الانفعالي بالعربية الدارجة، تدفعه إلى هذه التصريحات. ويرسم صالح غرمادي الفرد التونسي المزدوج على أنه شخص يعرف لغتين، لكن لا يتحكم حقيقة في أي واحدة، ويرجع السبب في ذلك إلى نزرة الإبداعات الأدبية القيمة، سواء بالعربية أو الفرنسية بتونس.

٣٨- قضى كلود شارميون سنوات طويلة في مهمّة التفتيش للتعليم الابتدائي بتونس، وقد أوضح في مقالته خصوصيات تطبع سلوك الفرد التونسي المزدوج اللغة.

٣٩- مدخل إلى فلسفة العلوم.

المصادر والمراجع

- **الازدواجية اللغوية والإزدواجية الثقافية في الوطن العربي**، للشاذلي الفيتوري، تر. رشيد بناني، مجلة آفاق عربية، عدد تموز، ١٩٩٠م.
- **الإسلام وفلسفة الحكم**، للدكتور محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٨٤م.
- **البقاء في عالم متغيّر**، للدكتور محمد الدعمي، مجلة شؤون عربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- **حول تكوين العقل العربي**، للدكتور محمد باسل الطائي، مجلة آفاق عربية، عدد تموز، بغداد، ١٩٩٠م.
- **عالم متغير**، لحسني عايش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٥م.
- **عوائق التقدّم الثقافي**، للدكتور حيدر إبراهيم، مؤتمر مستقبل الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- **اللغة العربية وتحديات عصر المعلومات**، للدكتور نبيل علي، مؤتمر مستقبل الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- **مدخل إلى فلسفة العلوم**، للدكتور محمد عابد الجابري، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢م.
- **مستقبل الثقافة العربية**، لزكريا محمد عبد الله، مجلة شؤون عربية، ع٩٢، مصر، ١٩٩٧م.
- **مفهوم التنوير**، للدكتور جلال أمين، مجلة شؤون عربية، ع ٩٢، القاهرة، ١٩٩٧م.
- **المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت**، للدكتور محمود حمدي زقزوق، ط٢، الانجلو المصرية، القاهرة،١٩٨١م.
- **نحو إطار معرفي جديد للثقافة العربية**، لتركي الحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م.
- **نظرة في المشكلات البنيوية للثقافة العربية**، لفالح عبد الجبار، مؤتمر مستقبل الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.